البحث عن غـــــد

للأستاذ عباس محمود العقاد

— ٣ —

كان مستر « روم لاندو » على صواب فى اهتمامه بالناحية الروحية من حياة الشرق الأدنى فى العصر الحاضر ؛ وقد أحسن تعليل هذا الاهتمام حين قال فى مقدمة كتابه : إن الشرق الأدنى هو الذى رسم للعالم الإنسانى مجراه فى طريق الحضارة والتهذيب . فلو خلت الدنيا من ثلاث « قارات » كاملة لما تغيرت ثقافتها الروحية إلا قليلاً ، ولكنها لو خلت من أمم البقاع المحصورة بين البحر الأبيض والبحر الأحمر والخليج الفارسى ، لكانت أديانها غير هذه الأديان ، وآدابها غير هذه الآداب ، وثقافتها غير هذه الثقافة ، ومعانى الحياة والمثل العليا فيها غير ما نعلمه من معانيها ومثلها العليا فى عصرنا الحديث

قال : « نعم حدث فى القرن الخامس عشر بعد كشف أمريكا وإخراج العرب من الأندلس أن المحور قد تحول نحو الأقطار الغربية ، ولكن الأمر لم يحتج إلى أكثر من ثلاثة سنة لاتجاه « الرقاص » إلى الشرق من جديد . وجاءت حملة نابليون المصرية وما وراءها من آماله فى الهند وما نجم عنها من كشف الحضارة المصرية التى طال العهد بنسيانها فأنشأت عهداً جديداً له شأنه وخطره في بلاد الشرق الأدنى »

ونحن الشرقيين يحق لنا أن نتنبط بما لبلادنا من الشأن الحاضر أو المنظور فى حياة العالم الروحية ، ولكننا خلقاء ألا ننظر إلى الأمور بالعين التى ينظر بها الغربيون ، فإنهم يبالغون ولا ريب فى استضعاف شأن الحياة الروحية كما يرونها فى أنحاء أوربا وأمريكا ، لأنهم سئموها وعالجوا أكاذيبها ومواطن القصور منها ، فكان استضعافهم إياها داعياً إلى التحول بالرجاء إلى غيرها ، وكان من جراء ذلك هذا الاقبال على مسائل الشرق الأدنى ولا سيما المسائل الروحية . وقد وجد بينهم أناس تحولوا إلى الشرق الأقصى والهند خاصة لتمليل أنفسهم بشىء من الرجاء وشىء من الثقة واليقين ، فهى حيرة تهديهم تارة إلى هنا وتارة إلى هناك .

ولا ينبغى لنا أن نجعل هذه الحيرة مقياسنا ومعيارنا فى تقويم ما لنا من قيمة ، وعرفان ما لنا من وزن وأمد . ونعتقد نحن خلافاً لما يعتقده بعض الأدباء الأوربيين أن البلاد الغربية ليست من النضوب الروحى بالحال التى يتخيلونها ، وليست من الركون إلى المادة والضرورات العملية بالموضع الذى يضعونها فيه . وينفعنا نحن الشرقيين أن نذكر ذلك لأننا محتاجون إلى بقية باقية فى الغرب من زاد الروح والذهن والخيال ، فإذا اعتقدنا فى الغرب النضوب والافقار فلا ربح فى ذلك لنا بل فيه الخسارة والفوات لا جدال

لنا أن نعرف قيمتنا ، ولكن ليس لنا أن نجهل قيمة غيرنا . ومن الحسن أن نحيط بما يكتبه الأجانب عنا لأنهم يرون ما يخفى علينا أحياناً من أحوالنا وخطواتنا لفرط الألفة وتكرار النظر بغير انقطاع ، كما يعرف المسافر العائد إلى أبنائه كم طالوا وكم كبروا وهم لا يلتفتون إلى ذلك . ولكن المرجع إلينا آخر الأمر فى الشعور بحقيقتنا ، والنفاذ إلى سريرتنا ، والمقابلة بين أمسنا وغدنا . ولا ضير فى قليل من الثقة — بل قليل من الغرور — يزيد على المقدار ، فإن المبالغة فى الثقة خير من المبالغة فى فقدها على كل حال

* * *

وصاحب كتاب « البحث عن غد » رجل يشعر بالإسلام والشرق الأدنى شعور المودة والترفق ، ولا يتعصب عليهما أو يتعصب لأعدائهما . فهو من ثم غير متهم فى مقاصده ونياته ، وغير بعيد عن أسباب الفهم الصحيح والحكم العادل ، ولكنه ينشد الحقيقة على طريقته العاجلة التى يتسع لها وقته فى رحلاته الكثيرة ، فهو أقرب إلى الأنباء الصحفية منه إلى المباحث العقلية والدروس العلمية أو الفلسفية . وهكذا ينبغى أن نتلقى آراءه وأحكامه ، وننظر إلى أغراضه ومناحيه

قصد البحث عن حياتنا الروحية فماذا صنع ؟ ذهب إلى السفارة المصرية فى العاصمة الانجليزية وتسلم منها كتب التوصية المعهودة وأسماء الأفراد المعهودين !! ولو قيل للمستر « روم لاندو » إن مصرياً أراد البحث فى حياة انجلترا الروحية فذهب إلى السفارة البريطانية ليسألها عن وجهات الفكر والروح فى بلادها لابتسم وأدرك نتيجة البحث لأول وهلة ، ولكنه رجل صحفى أو شبيه بالصحفيين ، فهذه أقرب الوسائل إلى إنجاز عمله وجمع المادة اللازمة

لتأليفه . وكذلك كان فى كتبه السابقة حينما تناول الأقطاب الروحيين القيمين فى باريس أو لندن أو نيويورك : سبيله إليهم كسبيل الصحفيين إلى المحادثات وجمع المعلومات

لو ذهب مصرى إلى السفارة البريطانية يسألها عن رجال الفكر والروح والخيال من الانجليز لما ذكرت له اسم لورنس أو اسم موجهام ، ولعلها لاتذكر له حتى اسم برناردشو ومن إليه من الأدباء الذين لايلتزمون التقاليد ولايدخلون فى السجلات الرسمية . وهى لاتهمل ذكرهم لأنها تجهلهم أو تستخف بأثرهم بين قرائهم ، ولكنها تهملهم لأن وظيفتها توجب عليها أن تلتزم التقاليد ولاتعترف بما وراءها من وجهات الأفكار ومذاهب الضمائر

ومن المعقول أن تسأل السفارة أو وزارة الخارجية فى إنجاز عمل أو الارشاد إلى من ينجزه ويتولى تسهيله . أما الارشاد إلى نزعات الفكر والروح ، فالسفارات والوزارات لاتتولاه وإن عرفت طريقه ، لأنها لاتدل على شىء إلا كان داخلا فى حدود المرسومات المحدودة ، حتى لو ظهر عليه لون من الشذوذ

ولهذا لاعجب أن يتحدث الكاتب عن « قدم المادة » وماقيل عنها فى الجامع الأزهر كأنه فتح جديد فى تفكير المسلمين ، مع أن المسلمين يعرفون مذاهب القائلين بالقدم والحدوث منذ مئات السنين . ومع أن المفكرين المعاصرين لا يحفلون بقدم المادة وحدوثها ولايشغلهم من صفاتها شىء أهم من هذه الصفة التى تجلى عنها البحث فى الاشعاع والتقريب بين المادة والقوة بهذه المثابة حتى أصبحت وكأنها معنى من المعانى وعدد من أعداد الرياضة والحساب

فلو أن « الباحث عن غد » وصل إلى الجامع الأزهر ووجد فيه البحث قائماً على اختلاف هذه الفروض فى كنه المادة لجاز له هذا الدهش الذى أفرط فيه حين علم عما قيل عن قدم المادة من قول صحيح أو غير صحيح . أما الدهش لأمر تكلم فيه المسلمون قبل ألف سنة فماذا فيه من البحث عن غد ؟ وماذا فيه من النزوع إلى الجديد ؟

كذلك يذهل الكتاب الأوربيون على هذه الشاكلة فى قياس الحركات الذهنية بما تثيره من الضجيج بين رجال الدين أو بين طلاب المعاهد الدينية . ومن ذلك مثلاً اعتقادهم أن الأستاذ على عبد الرازق قد غير فى قواعد الدين يوم قال إن الخلافة ليست من مراسم الاسلام . وما اعتقدوا هذا الاعتقاد إلا لأنهم حسبوا أن الضجة التى أثيرت حول كتابه كان مبعثها التعصب والغيرة على الدين . ولم يعرفوا الحقيقة التى يعرفها معظم المصريين ، وهى أن السياسة لعبت لعبتها فى هذه المعمعة من مبدئها إلى منتهاها . فلو أن الأستاذ على عبد الرازق أعان رأيه قبل بضع مئات من السنين يوم كان الأمراء المصريون يسعون فى إضفاء الخلافة لقوبل كتابه بالترحيب والمكافأة الجزيلة . ولو أن المسألة مسألة قديم وجديد وتغيير فى الأصول الدينية لكان الأولى أن يثير من الغضب يومذاك أضعاف ما أثاره فى عصرنا هذا ، ولكنها مسألة لها موقعها من السياسة ومن مآرب العيش عند بعض الناس فكان من جرائها ما كان

لهذا نقول إن حكم الأوربيين ولا سيما المستشرقين على شؤون مصر وشؤون الشرق العربى كافة أضعف الأحكام وأبعدها عن حساب العوامل الصحيحة والبواعث الخفية ، بل ربما كانت أبعدها عن البواعث الظاهرة فى كثير من الأحيان . وما كتبهم فى هذه الأغراض إلا طائفة من « الكتالوجات » على طراز آخر غير الطراز التجارى أو الطراز السياسى ، ولكنه مثله فى الجوهر وطريقة التحضير

ونخص المستشرقين بالخطأ مع أنهم أحرى أن يقتربوا من الصواب ويرجحوا إخوانهم الأوربيين الآخرين بمعرفة اللغة والاطلاع على التاريخ ، إذ الواقع أن « الاستشراق » قد نشأ قديماً فى بيئة التبشير ولا تزال فيه جذوره ومراميه ؛ وكل ما يعنى المبشرين هو مراسم الدين وتقاليد المساجد والكنائس والعبادات . فاذا نشبت مشاجرة فى مسجد أو كنيسة فذلك أدنى إلى ملاحظتهم من اختلاف مقاييس الفكر ودعائم الضمير ، لأنهم هم أنفسهم يعيشون فى هذه البيئة وما يحاذيها من طبقات الأدب وطبقات التفكير ، فهم معرضون لأخطاء أعظم من التى يتعرض لها الأوربيون الجاهلون بلغات الشرق وتواريخه الأدبية ، لأنهم ينظرون مغرضين وفى أعينهم قصر وعلى أعينهم غشاوة لا تميز الحقائق ولا تنفذ إلى ما وراء القشور

وعلى هذا يصح أن نحيط بما يكتبه الأوربيون عنا لنعرف منهم ملاحظاتهم التى تخفيها الألفة والنظر المتكرر إلى المتواتر من أحوالنا ، ولا يصح أن نقوم آراءهم وأحكامهم بأكبر من هذه القيمة أو نسومها بغير هذا السوام

عباس محمود العقاد